عن الصهيونيّة ونزعة التفوّق العرقيّ اليهوديّ

من أجل عمليّة سلام حقيقيّة

. جوزيف مسعد* .

لا جدال بعد اليوم، حتى في أوساط كثير من الإسرائيليّين، في أنّ وَقْع الصهيونيّة على الشعب الفلسطينيّ خلال الأعوام المئة الأخيرة يَشْمل: طَرْدَ غالبيّة الفلسطينيّين من أراضيهم وبيوتهم، ومن ثم مصادرةَ ممتلكاتهم لصالح اليهود حصرًا، ومَنْعَ اللاجئين من العودة. كما يَشْمل فَرْضَ نظام أپارتايد عسكريٍّ على الفلسطينيّين الباقين داخل حدود ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٦، حين تحوّلَ بعد هذا التاريخ إلى نظامٍ تمييزٍ مدنيّ يتّسم بنزعة التفوُّق العرقيّ اليهوديّ. وهو يَشْمل أيضًا إخضاعَ الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة وساكنيهما لاحتلالٍ عسكريّ ولنظامٍ أپارتايد طوال الأعوام الخمسة والثلاثين الأخيرة، ولاستعمارٍ متواصلٍ لهذه الأراضي المحتلّة. فهل يُمْكن إيجادُ حلّ للصراع الذي جاءت به الصهيونيّةُ من أوروبا وفرضَتْه على شعبٍ غالبيّتُه من الفلاّحين؟

منذ أنْ بدأت «العمليّةُ السلميّة» في أوسلو عام ١٩٩٣ ما انفكّتْ معظمُ السجالات في الخطاب الرسميّ الإسرائيليّ والأميركيّ والفلسطينيّ الدائرة حول كيفيّة «إنهاء» الصراع بين الصهيونيّة والفلسطينيّين تشدّد على مسألة البراغماتيّة في مواجهة المثاليّة. وجاء منطقُ هذا الخطاب على النحو التالي: ليس من البراغماتيّة (العملانيّة) إعطاءُ اللاجئين حقّ العودة؛ ولا إعادةُ ممتلكاتهم إليهم؛ ولا تفكيكُ المستوطنات في الأراضي المحتلّة؛ ولا إعادةُ المناطق المحتلّة إلى السيطرة الفلسطينيّة؛ ولا إنهاءُ جوانب الاحتلال الإسرائيليّ كافّةً. علاوةً على ذلك تمّ الجَهْرُ دومًا بأنّ تحويل إسرائيل إلى دولةٍ غير يهوديّة (اقرأْ: غير عنصريّة) ليس هو الآخر أمرًا براغماتيّاً، علمًا أنّ الهويّة اليهوديّة لإسرائيل لم تكن يومًا جزءًا من المفاوضات الجارية.

وفي المقابل شدّدتْ حججُ هذا الخطاب على الأمور «البراغماتيّة» التالية: سيكون براغماتيّاً أن يتخلّى الفلسطينيُّون عن حقّ العودة؛ وأن يَقْبلوا العيشَ في دولة تتّسم بنزعة التفوُّق اليهوديّ كمواطنين من الدرجة الثالثة؛ وأن يعيشوا في بانتوستانات (معازلَ) يحاصرُها الإسرائيليُّون ويتحكّمون بها بدلاً من أن يختاروا الاستقلالَ؛ وأن تَبْقى إسرائيل دولةً تسودُ فيها نزعةُ التفوُّق العرقيّ اليهوديّ. وعليه، فإنّ تحديد المعايير التي يُحْكم فيها على هذه الحلول بالعملانيّة أو اللاعملانيّة هو السؤال الذي مافتئ يَطْرح نفسَه بإلحاح.

براغماتيّة أَمْ عِرْقيّة؟

هل مسألةُ عودة اللاجئين الفلسطينيّين غيرُ عمليّة لأنّ إسرائيل أصغرُ من أن تَحْتمل ذلك من الناحية الديموغرافيّة؟ لا يبدو واقعُ الأمر على هذا النحو، ذلك لأنّ إسرائيل تواصلُ تسويقَ نفسها بوصفها مآلاً أخيرًا لملايين من يهود الشتات في الأميركيتيْن وفي روسيا، الذين كان اهتمامُهم بالهجرة إلى فلسطين ـ برغم الجهود الصهيونيّة الحثيثة ـ فاترًا (باستثناء أولئك الذين هاجروا من روسيا بين عاميْ ١٩٩٠ و٢٠٠٠، والكثيرُ منهم لم يكونوا يهودًا على الإطلاق كما اتّضَح). وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠١، وفي الوقت الذي كان الجيشُ الإسرائيليُّ يواصلُ فيه قتلَ المقاومين الفلسطينيّين في الأراضي المحتلّة وقَصْفَهم واغتيالَهم، كان رئيسُ الوزراء الإسرائيليّ آرييل شارون يتعهّد بجلب مليون يهوديّ إضافيّ إلى إسرائيل. وقيل إنّ شارون قد يختار، مع قرب نُضُوبِ بئر اليهود الروس، أن يشجّع نصفَ مليون يهوديّ أرجنتينيّ على المجيء والاستيطانِ في الدولة اليهوديّة، بعد أن آثر اليهودُ الأميركيُّون بغالبيّتهم الساحقة أن لا يَحْظَوْا بنعمة «الخلاص» في إسرائيل بل أن يعوّضوا للإسرائيليّين اليهود عن ذلك

---

* ـ أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة كولومبيا في نيويورك. كتابه **آثار استعماريّة: إنشاء الهويّة الوطنيّة في الأردن** نُشِر بالإنكليزيّة عام ٢٠٠١.

بأن يقدِّموا من «منفاهم» الأميركيّ دعمًا ماديًّا وسياسيًّا لدولة الأپارتايد اليهوديّة.(١) فمن اليقين، إذن، أنّ إسرائيل التي تستطيع أن تستوعبَ في حدودها الضيّقة ملايينَ إضافيِّين من اليهود تستطيع أن تَفْعل الأمرَ نفسَه باللاجئين الفلسطينيِّين الذين طَرَدَتهم من أرضهم التي تدعو أولئك اليهودَ الجددَ إلى استيطانها!

ولكنّ كلّ الحلول التي قدّمها الفلسطينيُّون واليهود الإسرائيليُّون، الرسميُّون وغيرُ الرسميِّين، لعلاج «مشكلة» اللاجئين يبدو أنّها تَتَّفق على لاعملانيّة عودة اللاجئين إلى أراضيهم. وتَشْمل الأمثلةُ الحديثةُ على مثل هذه الاقتراحات كتابَ دونا آرْزت **من لاجئين إلى مواطنين: الفلسطينيُّون ونهاية الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ**: والاقتراحَ الذي قدّمه «برنامجُ جامعة هارڤرد عن تحليل الصراع الدوليّ وحلّه،» وقد ناقَشَه فريقٌ من الفلسطينيِّين والإسرائيليِّين، وكتبَه كلٌّ من خليل شقاقي وجوزيف ألْفِرْ.(٢) فالعُرضة للخطر بالنسبة إلى واضعي هذه الاقتراحات وكثيرٍ غيرهم إنّما هي محافظةُ إسرائيل على تفوُّقها العرقيّ اليهوديّ (الملقّب بـ «هويّتها اليهوديّة»). بل إنّ ياسر عرفات نفسه، وفي محاولاته المتواصلة للحفاظ على سلطته على حساب أرواح شعبه وحقوقهم، فَوَّض في تشرين الثاني (نوفمبر) واحدًا من موظّفيه هو سري نسيْبه، ممثِّلُ السلطة الفلسطينيّة في القدس الشرقيّة، بالتخلّي عن حقّ اللاجئين الفلسطينيِّين في العودة. وقد أكّد نسيْبه أيضًا، أمام فريقٍ من أعضاء الكنيست الإسرائيليّ يمثِّلون حزبَ ميريتز اليساريّ، ما يلي: «إذا أراد الفلسطينيُّون حلاًّ، فإنّ علينا أن نأخُذَ رفضَ إسرائيل [السماحَ للفلسطينيِّين بالعودة] في الاعتبار.» وهذا تنازلٌ سارَعَ أعضاءُ الكنيست إلى الترحيب به وعَدُّوه جديرًا بـ «الدرس.»(٣) ورحّبتْ صحيفة **هآرتس** الليبراليّة الإسرائيليّة بهذا التنازل فورًا، كما فَعَلَ واحدٌ من صحفيِّيها الرئيسيِّين هو داني روبنشتاين (الذي يُعتبر عادةً متعاطفًا مع الفلسطينيِّين)، ولكنّه أسِفَ لأن لا يكون نسيْبه ممثِّلاً لغالبيّة الرأي العامّ الفلسطينيّ.(٤) غير أنّ شيئًا من هذا لم يَنْعكس على المستوى الرسميّ الإسرائيليّ. وقَلِقَ عرفات من أن لا تتعامل إسرائيلُ جدّيًا مع تنازل نسيْبه، فعبّر بنفسه صراحةً عن «تفهُّمه» و«احترامه» لحاجة إسرائيل إلى الحفاظ على نزعة تفوُّقها العرقيّة اليهوديّة، وذلك في مقالةٍ نَشَرَها في جريدة **نيويورك تايمز**. في هذه

---

١ ـ Emma Brockes and Ewen MacAskill, "Sharon Wants 1m New Jews for Israel," *The Guardian*, November 7, 2001.

٢ ـ Donna E. Arzt, **Refugees into Citizens, Palestinians and the End of the Arab-Israeli Conflict** (New York: Council on Foreign Relations, 1997); and Joseph Alpher and Khalil Shikaki, "The Palestinian Refugee Problem and the Right of Return," Working Paper Series, No. 98-7, Weatherhead Center for International Affairs, Harvard University, May 1998.

وحده نبيل قسيس لم يشاركْ في الصياغة النهائيّة للتقرير، من بين أفراد الفريق الفلسطينيّ الذي ضَمَّ (بالإضافة إلى خليل شقاقي) براغماتيِّين فلسطينيِّين آخرين وهم: غسان الخطيب، وإبراهيم دقاق، ويزيد صايغ، ونديم روحانا، ونبيل قسيس (أنظر صفحة x). ومن بين المشاركين الإسرائيليِّين واليهود الأميركيِّين: جوزيف آلفِرْ، وغابرييل بن دور، ويوسي كاتز، وموشي ماعوز، وزئيف شِفْ، وشيمون شامير، وهربرت كلْمان.

٣ ـ أسعد تلحمي، «فلسطينيُّون يتّهمون السلطة بإطلاق بالون اختبار بشأن قضيّة اللاجئين، وإسرائيليُّون يرحِّبون بالواقعيّة،» جريدة **الحياة** ١٦ تشرين الثاني، ٢٠٠١، ص ٨.

٤ ـ المصدر السابق.

المقالة يؤكّد عرفات، دونما خجل: «أنّنا نتفّهم مخاوفَ إسرائيل الديموغرافيّةَ، ونتفّهم أنّ على حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيّين، الذي كَفَله القانونُ الدوليُّ وقرارُ الأمم المتحدة رقم ١٩٤، أن يطبَّقَ بطريقةٍ تَأْخذ هذه المخاوفَ في الاعتبار.»[١] ومضى عرفات يقول إنّه يتطلّع إلى التفاوض مع إسرائيل حول «حلول خلّاقة لمأساة اللاجئين مع احترام مخاوف إسرائيل الديموغرافيّة،» أيْ بالأحرى «احترام» مخاوفها التفوُّقيّة العِرْقيّة اليهوديّة. غير أنّ ما يَجْعل عودةَ اللاجئين الفلسطينيّين الذين طردتْهم إسرائيلُ، وسرقتْ وماتزال تسرق أراضيَهم، أمرًا غيرَ عمليّ ليس في الواقع اعتباراتٍ جغرافيّةً أو «ديموغرافيّةً» ولا عوائقَ بيئيّةً أو لوجيستيّةً، وإنّما كونُهم غيرَ يهود.[٢]

كما يُماري البعضُ في أنّه لا يُمْكن لإسرائيل أن تكون دولةً لكلّ مواطنيها لأنّ هذا يعني أنّها لن تستطيع أن تبقى دولةً يهوديّةً بل ستصبح دولةً إسرائيليّةً. والحقّ أنّ الكلام العنصريّ عن «الخَطَر» الديموغرافيّ الذي يشكّله الفلسطينيُّون على إسرائيل يهوديّةٍ عِرقيّةٍ متفوّقةٍ لا يَنْحصر فقط بآرييل شارون وباليمين اليهوديّ الإسرائيليّ (الذي يشكّل في كلّ حالٍ غالبيّةً في إسرائيل اليهوديّة) بل يطول اليهودَ الإسرائيليّين الليبراليّين واليساريّين أيضًا. ففي كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٠، عَقَدَ «معهدُ السياسة والإستراتيجيا في مركز هرزليا المتداخِل المناهج» في إسرائيل مؤتمرَه الأوّلَ ضِمْن ما سيكون سلسلةً من المؤتمرات السنويّة التي تُعنى بقوّة إسرائيل وأمنها، ولاسيّما في ما يخصّ الحفاظَ على هويّة إسرائيل المتّسمة بالنزعة التفوُّقيّة العِرْقيّة اليهوديّة. وكانت واحدةً من «النقاط الأساسيّة» في التقرير الذي صَدَر عن هذا المؤتمر هي القلقُ من ضخامة أعداد اليهود الواجبِ وجودُهم للمحافظة على تلك النزعة في إسرائيل: «إنّ معدّل الولادة العالي [للعرب داخل حدود ١٩٤٨] يَطْرح السؤالَ عن مستقبل إسرائيل كدولة يهوديّة... وأمام إسرائيل إستراتيجيّتان بديلتان: التكيُّفُ أو الاستيعابُ. الاستراتيجيّة الأخيرة تتطلّب سياسةً ديموغرافيّةً صهيونيّةً حيويّةً بعيدةَ المدى تَضْمَنُ آثارُها السياسيّةُ والاقتصاديّةُ والتربويّةُ الطبيعةَ اليهوديّةَ لإسرائيل.»[٣] ويضيف التقريرُ بنبرة تأكيديّة أنّ «أولئك الذين يَدْعمون الحفاظَ على هويّة إسرائيل... بوصفها دولةً يهوديّةً للأمّة اليهوديّة... يشكّلون غالبيّةً بين السكّان اليهود في إسرائيل.»

لم يكن المؤتمرُ المذكورُ جهدًا فرديّاً: فرئيسُ إسرائيل نفسُه، موشيه كاتساف، هو مَنْ رَحَّبَ بالحضور. وشارك في رعاية هذا المؤتمر كلٌّ من اللّجنة الأميركيّة اليهوديّة، ومركز إسرائيل للنموّ الاجتماعيّ والاقتصاديّ، ووزارةِ الدفاع الإسرائيليّة، والوكالةِ اليهوديّة، والمنظّمةِ الصهيونيّة العالميّة، ومعهدِ الأمن القوميّ في جامعة حيفا، ومجلسِ الأمن القوميّ الإسرائيليّ التابع لمكتب رئيس الوزراء. وقدّم المؤتمرُ خمسين متحدّثًا، بمن فيهم مسؤولون حكوميُّون وعسكريُّون رفيعو المستوى، ورؤساءُ وزارة سابقون ولاحقون، وأساتذةُ جامعات، وشخصيّاتٌ من عالم المال والإعلام، علاوةً على

١ ـ Yasser Arafat, "The Palestinian Vision of Peace," *New York Times*, 3 February, 2002.

٢ ـ للتوسُّع في معرفة كلّ الحلول المقترحة لمشكلة اللاجئين انظرْ: Joseph Massad, "Return of Permanent Exile," in Naseer Aruri, ed., **Palestinian Refugees and the Right of Return** (London: Pluto Press, 2001).

٣ ـ لمقاطع مختارة من تقرير المؤتمر، انظرْ: "The Herzlia Conference on the Balance of National Strength and Security in Israel," in *Journal of Palestine Studies*, No. 121, Autumn 2001, p. 50-61.

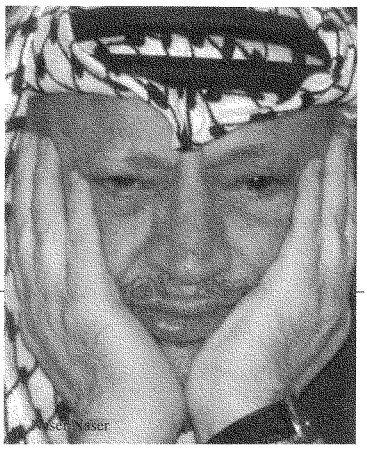

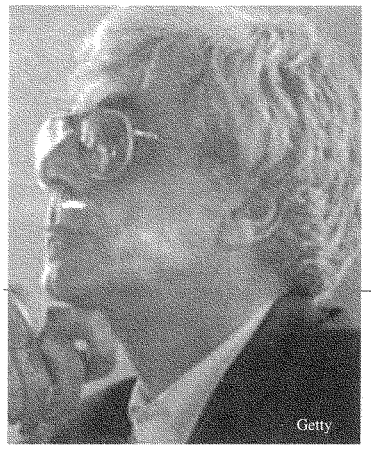

فوّض عرفات سري نسيبه بالتخلّي عن حقّ العودة، وأكد «تفهُّمه لمخاوف إسرائيل الديموغرافيّة»

أكاديميّين أميركيّين يهود وعناصر مُؤثِّرةٍ في اللُّوبي الصهيونيّ الأميركيّ.

لم تكن نتائجُ بحث هذا المؤتمر ولا التزاماتُه ظاهرةً جديدةً في الفكر الصهيونيّ على الإطلاق. ذلك أنَّ الحرصَ على التفوُّق الديموغرافيّ اليهوديّ قديمٌ قِدَمَ الحركة الصهيونيّة نفسِها. فقد كان مؤسِّسُ هذه الحركة، ثيودور هرتزل، هو مَنْ فَهِمَ أنَّ على اليهود الأوروبيِّين أن يشكّلوا أغلبيّة إثنيّة ـ عِرْقيّة عبر تفوُّق ديموغرافيّ. إذ أكّد بهدوء ووقار أنَّ «تسلُّلَ [اليهود] محكوم بنهاية سيِّئة. فهو سيتواصل حتى بلوغ اللَّحظة المحتومة، حين يَشْعر السكّانُ الأصليُّون أنَّهم مهدَّدون فيُجْبِرون الحكومةَ على وقْف تدفُّقِ يهودٍ جُدُد. إنَّ الهجرة، تبعًا لذلك، لا جدوى لها إلاَّ إذا كان لنا الحقُّ المطلقُ في مواصلة مثل هذه الهجرة.»[1] ولتحقيق هذا يَنْبغي على المستوطنين اليهود أن يصادِروا «بلطفٍ ممتلكاتِ السكّان الأصليِّين وأن يحاولوا أن يَحْملوا السكّانَ المعدُومين على مغادرة الحدود وذلك بأن يدبِّروا لهم وظائفَ في بلدان الجوار، وأن يحرموهم في الوقت نفسه من أيِّ وظيفةٍ في بلادنا نحن... وعلى عمليّة المصادرة وعمليّةِ إزاحة الفقراء أن تُجرَيا بتكتُّمٍ وحذر... فليتوهَّمْ أصحابُ الممتلكات غيرِ المنقولة أنَّهم يغشُّوننا ببيعهم إيّانا أشياء أغلى بكثيرٍ من قيمتها الفعليّة. غير أنَّنا لن نعود ونبيعَهم شيئًا منها.»[2]

ولكنْ قبل إخراج السكان الأصليِّين من بلادهم سيُحتاجُ إليهم للقيام ببعض المهامّ الضروريّة: «إذا انتقلنا إلى منطقةٍ فيها حيواناتٌ متوحّشةٌ لم يَعْتَدْها اليهودُ ـ كالأفاعي الضخمة وما إلى هنالك ـ فسأَسْتخدِم السكّانَ الأصليِّين، قبل أن أعطيَهم وظائفَ في دول الجوار، من أجل إبادة هذه الحيوانات.» وسيقدِّم اليهودُ «مكافأت ثمينةً مقابلَ جلود الأفاعي، وغيرِ ذلك، ومقابلَ بيضِها أيضًا.»[3] غير أنَّ هذه الخطَّة لَمْ تتمَّ بالتكتُّم والحذر اللذيْن أَملَ بهما هرتزل. بل إنَّ جزءًا من «غزوهم لسوق العمل،» الذي كان يُفترض بموجبه أن يَعْمل اليهودُ وحدهم في الأرض «اليهوديّة،» تبدَّى في حادثة شهيرة. فحين اكتشف المستعمرون الصهاينةُ عامَ ١٩٠٨ أنَّ شجيْرات إحدى الغابات، التي أُنشئتْ في منطقة بن شيمن قرب اللدّ إحياءً لذكرى ثيودور هرتزل، كان العربُ هم مَنْ زرعوها، قاموا باستئصالها ثمّ أعادوا زرعها من جديد.[4]

وحقيقة الأمر أنَّ الحرص على التفوُّق العرقيّ اليهوديّ في إسرائيل سائدٌ في جميع المناحي، بحيث نَشَرت الجريدةُ الإسرائيليَّة الروسية البارزة **نوفوستي** في كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠ مقالةً بقلم إحدى صحافيّاتها البارزات، وهي ماريان بيلَنْكي، بعنوان «كيف نُجْبرهم على الرحيل،» وفيها اقترحتْ أنْ تهدِّد الحكومةُ الإسرائيليَّةُ بخَصْي العرب من أجل دفعهم إلى مغادرة البلاد. وبحسب الجريدة الإسرائيليّة **هآرتس** فإنَّ المؤلّفة اقترحتْ أيضًا: «أن تُطبَّق الطريقةُ الصينيَّةُ لخفض معدّلات الولادة على السكّان العرب في إسرائيل من أجل خفض معدّلات ولادتهم هم أيضًا. وبحسب هذه الطريقة يُحْرَمُ

١ ـ Theodor Herzl, **The Jewish State** (New York: Dover Publications, 1988), p. 95.

٢ ـ Theodor, Herzl, **The Complete Diaries of Theodor Herzl**, edited by Raphael Patai, and translated by Harry Zohn, Volume I (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), p. 88.

٣ ـ Ibid., p. 98.

٤ ـ See David Hirst, **The Gun and the Olive Branch, The Roots of Violence in the Middle East** (London: Faber and Faber, 1984), p. 25.

الأشخاصُ الذين لهم أكثرُ من ولد من فوائد مختلفة، ويَخْسرون وظائفَهم، ويسلَّطُ عليهم خطرُ النفي. كما سيتمّ تقديمُ مكافآت نقديّة للشبّان الذين يوافقون طوعًا على أن يُخْصَوْا...»

لاحقًا قال محرِّرُ الجريدة إنّ نشر هذه المقالة كان «خطأً فادحًا،» وفَصَلَ المحرِّرَ المسؤولَ عن نشرها مدة ثلاثة شهور. غير أنّ **هآرتس** استغربتْ ألا تتلقّى الجريدةُ «أيَّ ردود من القرّاء أو من الممثِّلين العلنيِّين للجالية الروسيّة في إسرائيل.»[١] ولكنّ المستغرب هو أن تَسْتغرب **هآرتس** من هذه الظاهرة على الإطلاق. فوزيرُ السياحة بني آلون (من حزب موليديت)، الذي حلَّ مؤخّرًا محلَّ الوزير الإسرائيليّ رحبعام زئيفي الذي اغتيل، اقترَحَ ـ شأنَ سَلَفِهِ ـ في ١ شباط (فبراير) ٢٠٠٢ أن يُطْرد جميعُ المواطنين العرب من إسرائيل.[٢]

وبالإضافة إلى الفلسطينيِّين الذين فَهموا الصهيونيّةَ على ما هي عليه حقّاً وقاوموها منذ نشأتها في نهاية القرن التاسع عشر،[٣] ثمّة عدد كبير من اليهود الذين رفضوا الحركة الصهيونيّة لرفضهم خططَها المعدّةَ لليهود وللفلسطينيِّين أيضًا. ففي زمنٍ مبكّر يعود إلى عام ١٩١٩ قدَّم جوليوس كانْ، وهو عضوٌ يهوديٌّ في الكونغرس عن ولاية سان فرانسيسكو، بيانًا إلى الرئيس ويلسون، صَدّق عليه ٢٩٩ يهوديّاً، حاخاماتٍ وعلْمانيِّين. وقد رَفَضت الوثيقةُ، التي دانت الصهاينةَ لمحاولتهم فَصْلَ اليهود عن الأغيار ولقَلْبِ مجرى التاريخ السائر باتّجاه التحرّر، قيامَ دولةٍ في فلسطين تقتصر على اليهود لكون هذا نقيضًا لـ «مبادئ الديموقراطيّة.»[٤] والحقّ أنّ هناك عددًا من اليهود الأميركيِّين البارزين لم يتوقّفوا عن الإحساس بالرعب حيال المخطّط الصهيونيّ على امتداد أربعينيّات القرن العشرين. فجايمس ن. روزنبرغ من اللجنة الأميركيّة اليهوديّة دان المخطّطاتِ الصهيونيّةَ لإقامة دولة يهوديّة صرْفٍ على اعتبار ذلك عملاً غيرَ ديموقراطيّ. وفي مقالة مثيرة ظهرتْ لاحقًا في الصحافة الأميركيّة وتَدْحض الحججَ الصهيونيّةَ، اعترض روزنبرغ على إلغاء حقوق غير اليهود نتيجةً لإنشاء دولة تتّسم بنزعة التفوُّق العرقيّ اليهوديّ.[٥] وبسبب السياسات الصهيونيّة في إسكات أيّ نقدٍ يهوديّ داخل المنظّمات اليهوديّة الأميركيّة، وفي تهديد أعدائها في «المؤتمر المركزيّ للحاخامات الأميركيِّين» في حزيران (يونيو) ١٩٤٣، تخوَّفَ الحاخامُ الإصلاحيُّ لُووِي والزي (المعادي للصهيونيّة عداءً ضاريًا) من أن يكون الحاخامُ الصهيونيُّ الأميركيُّ ستيفان وايز «قد كَشَفَ، بالطغيان الذي مارسه على الحاخامات الذين لم يَمْتثلوا للإجماع، ما قد يَفْعله الصهاينةُ بالعرب.»[٦] هذا وقد واصل الأميركيُّون اليهودُ المعادُون للصهيونيّة حتى حلول عام ١٩٤٨ عداءَهم للمخطّطات العرقيّة التفوقيّة اليهوديّة التي وضعتْها

١ ـ Lily Galili, *Ha'Aretz*, January 28, 2002.

٢ ـ انظرْ «خليفة زئيفي يَدْعو لترحيل الفلسطينيِّين،» في جريدة **الحياة**، ٢ شباط، ٢٠٠٢، ص ٤.

٣ ـ عن المقاومة الفلسطينيّة انظرْ: Rashid Khalidi, **Palestinian Identity, The Construction of Modern National Consciousness** (New York: Columbia University Press, 1997), and David Hirst, op. cit.

٤ ـ "Protest to Wilson Against Zionist State," *New York Times*, 5 March 1919, p. 7, cited in Thomas Kolsky, **Jews Against Zionism, The American Council For Judaism, 1942-1948** (Philadelphia: Temple University Press, 1990), p. 31.

٥ ـ Ibid., p. 41.

٦ ـ Ibid., p. 73.

الصهيونيّة، وبعد ذلك التاريخ تقلّص أكثرُ الدعم الذي كانوا قد تلقّوه في العقود السابقة أمام حقيقة المذابح النازيّة (المَحْرَقة) وقيام الدولة ذات النزعة العرقيّة اليهوديّة في فلسطين.

أمّا القوانين التي تحمي التفوُّقَ العرقيّ اليهوديّ في إسرائيل، فهي قانونُ العودة (١٩٥٠)، وقانونُ المواطنيّة (١٩٥٢)، وقانونُ الوَضْع الشرعيّ (١٩٥٢)، وقانونُ الممتلكات المتغيِّبة (١٩٥٠)، وقانونُ ممتلكات الدولة (١٩٥٨)، وقانونُ إدارة الأراضي في إسرائيل (١٩٦٠)، وقانونُ الإنشاء والبناء (١٩٦٥)، وقوانينُ أخرى لا تُحصى، فضلاً عن الرمزيّة اليهوديّة الحصريّة التي تَسْتعرضها إسرائيلُ والتي تمتدّ من عَلَمِها اليهوديّ ونشيدِها الوطنيّ (الذي لا يُخاطِبُ إلاّ اليهودَ) إلى أعيادها الوطنيّة والممارسات التمييزيّة المُمَأْسسة ضد مواطنيها العرب غيرِ اليهود في كل جانب من جوانب الحياة. وبالإضافة الى كلّ هذا يواصِلُ المجتمعُ اليهوديُّ في إسرائيل والقياداتُ اليهوديّةُ اعتبارَ نزعة التفوُّق العرقيّ اليهوديّ أمرًا بالغَ التقديس وغيرَ قابل للتفاوض.[1] فمؤخَّرًا عبَّر شيمون بيريز، وهو من «حمائم» إسرائيل الرسميّة، عن قلقه حيال «الخطر» الديموغرافيّ الفلسطينيّ لكون الخطّ الأخضرِ الفاصلِ بين إسرائيل والضفّةِ الغربيّة قد بدأ «يختفي... الأمرُ الذي قد يؤدّي إلى رَبْطِ مصائر فلسطينيّي الضفّة الغربيّة بالإسرائيليّين العرب.» وأَملَ أن يؤجِّل وصولُ مئة ألف يهوديّ إلى إسرائيل من هذا «الخطر» الديموغرافيّ عشرَ سنواتٍ قادمة لأنّ «الديموغرافيا ستَهْزم الجغرافيا» في نهاية المطاف.[2] والحقّ أنّ ثمّة القليلَ جداً ممّا يمكن تمييزُه بيْن توجُّهات كلٍّ من بيريز وشارون من جهة بخصوص هذه النزعة، وتوجُّهات غولدا مائير من جهة ثانية وهي التي لم يكن باستطاعتها النَّومُ في أوائل السبعينيّات بسبب رعبها من أعداد الفلسطينيّين الذين يُولَدون ويَحْملون كلَّ ليلة![3]

وتَمْضي الحججُ الإسرائيليّةُ إلى القول إنّه ليس بمقدور إسرائيل إنهاءُ احتلال الضفّة الغربيّة وغزّة لأنّ عليها حمايةَ المستوطنين اليهود هناك، ومواصلةَ سيطرتها التامّة على المياه الفلسطينيّة من أجل استخدام اليهود لها، وضمانَ أمن إسرائيل كدولة يهوديّة من التهديدات التي قد تأتي من دولةٍ فلسطينيّةٍ مستقلّةٍ على الضفّة الغربيّة وغزّة. وقد كان هذا الخطاب ركيزةً أساسيّةً لـ «العمليّة السلميّة،» التي بدأتْ في مدريد عام ١٩٩١ وتُوِّجتْ بعمليّة أوسلو عام ١٩٩٣، وركيزةً أساسيّةً أيضًا للنتائج الكارثيّة التي ظلّ الفلسطينيّون يَخْضعون لها طوال السنوات العشر الأخيرة من مفاوضات «السلام.»[4]

١ ـ عن قوانين إسرائيل العنصريّة ومعاملتها لمواطنيها العرب الفلسطينيّين، انظرْ: Sabri Jiryis, **The Arabs in Israel** (New York: Monthly Review Press, 1976), and Ian Lustick, **Arabs in the Jewish State, Israel's Control of a National Minority** (Austin: University of Texas Press, 1980).

٢ ـ **الحياة**، ٢٤ آب، ٢٠٠١، ص ٣. «بيريز يحذِّر من الخطر الديموغرافيّ الفلسطينيّ ويشنّ هجومًا حاداً على النوّاب العرب في الكنيست.»

٣ ـ David Hirst, op. cit., p. 242-243.

٤ ـ عن الخطاب «البراغماتيّ» الذي تبنّاه المثقفون الفلسطينيُّون أنفسُهم بعد أوسلو، انظر: Joseph Massad, "Political Realists or Comprador Intelligentsia: Palestinian Intellectuals and the National Struggle," **Critique**, Fall 1997.

وقد نشر هذا المقال في العربيّة تحت عنوان «ساسة واقعيُّون أم مثقّفون كمبرادوريّون: المثقفون الفلسطينيُّون والصراع الوطنيّ،» في مجلة **كنعان**، رقم ١٥، ١٩٩٧.

الصهيونيّة واللاساميّة

استعارت نزعة التفوُّق العرقيّ اليهوديّ في الفكر الصهيونيّ، منذ ولادتها، الكثيرَ من الخطاب المعادي للساميّة. فهرتزل مثلاً لم يَكْتفِ بموافقة المعادين للساميّة على أنّ اليهود هم مَنْ «سَبَّبوا» العداءَ للساميّة ـ بقوله «حيث لا تُوجد [اللاساميّةُ] فإنّ اليهودَ يَحْملونها في سياق هجراتهم... إنّ اليهود البائسين يَحْملون إلى انكلترا الآن بذورَ العداء للساميّة، وكانوا قد أَدْخلوها قبلاً إلى أميركا»[1] ـ بل يتّفق معهم أيضًا في أنّ نهاية العداء للساميّة لا يكون إلاّ بإخراج اليهود من المجتمعات غير اليهوديّة (ومن هنا توقُّعُ هرتزل الصائبُ بأنّ المعادين للساميّة سيَهبُّون فورًا إلى دعم الصهاينة، وهو ما فعلوه حقّاً).[2] وها هم اليهود الإسرائيليُّون التفوقيُّون يُحْيُون الأفكارَ المعاديةَ للساميّة التي انتشرتْ عند منعطف القرن واتَّهمتِ اليهودَ بالسعي إلى السيطرة على العالم. ومن كتاب **بروتوكولات حُكَماء صهيون** السيِّئ الصيت الذي صدر زمنَ قيصر روسيا، إلى الدعاية النازيّة الإباديّة، كان مفهومُ اليهود كشعب «متعطِّشٍ إلى القوّة» جزءًا لا يتجزّأ من مُعْجم الحقد المعادي للساميّة.

واليوم يبدو أنّ اليهود الإسرائيليِّين التفوُّقيِّين يتّفقون مع المعادين للساميّة في أنّه لو صحّ أنّ اليهود لا يسيطرون على العالم فهم يسيطرون على أميركا على الأقلّ. ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٩٤، نشرت الجريدةُ الإسرائيليّة **معاريف** تقريرًا عن «اليهود الذين يديرون حكومةَ كلينتون،» ولاحظتْ نموّاً في «القوّة اليهوديّة» داخل حكومة الولايات المتحدة منذ سنواتِ حكم الرئيس ريغان. ومع أنّ الجريدة أكّدتْ أنّ اليهود الأميركيِّين كانوا يتمتّعون بمواقعَ أساسيّةٍ في ما يخصّ سياسةَ الولايات المتحدة إزاء الشرق الأوسط قبل قُدوم كلينتون، فإنّ «القوّة اليهوديّة» توسّعتْ بشكل ملحوظ أثناء إدارة هذا الأخير. إذ علاوةً على نائب مستشار الأمن القوميّ صموئيل بِرْغر، ومستشارِ نائب الرئيس للأمن القوميّ ليون بِرْث، ثمّة «٧ من أصل ١١ من أعضاء مجلس الأمن القوميّ يهودٌ. وقد وَضَعَهم كلينتون خصّيصًا في أكثر المفاصل الحسّاسة في الإدارات الأمنيّة والخارجيّة الأميركيّة.» وتُعلن المقالةُ بفخرٍ كيف أنّ اليهود الأميركيِّين يَعْتلون قمّةَ المناصبِ التي تتولّى سياسةَ الولايات المتحدة لا في الشرق الأوسط وحده بل في أفريقيا وجنوبيّ آسيا وأوروبا الغربيّة وأميركا اللاتينيّة أيضًا. وتزوِّد المقالة قرّاءها بنبذةٍ عن عدد كبير ممّن يسمِّوْن «اليهودَ الدافئين،» أي اليهودَ الذين يتماهَوْن مع المصالح اليهوديّة المعرَّفة بأنّها مصالح إسرائيليّةٌ. ولكي لا نظنّ أنّ هذه «القوّة اليهوديّة» المزعومة مقتصِرةٌ على الحزب الديموقراطيّ وحده، فإنّ المقالة تَشْرح «أنّ هناك الكثيرَ من اليهود الدافئين الذين يتّجهون إلى تولّي مناصبَ عليا في الحزب الجمهوريّ أيضًا.» وتورد المقالةُ أنّ حاخامًا مقرُّه في واشنطن دي سي يؤكّد «أنّنا للمرّة الأولى في التاريخ الأميركيّ... لا نَشْعر أنّنا نعيش في الشّتات. فلم يَعُدْ للولايات المتحدة حكومةٌ من الأغيار (الغوييم)، بل باتت لها إدارةٌ، اليهودُ فيها شُركاءُ كاملون في صناعة القرار على المستويات كافةً...»[3] وقد تملَّكَ كاتبَ المقالة اليهوديَّ الإسرائيليَّ إعجابٌ شديدٌ بمدى «يهوديّة» الحكومة الأميركيّة في زمنه، إلى حدّ أنّه حين اتّصل هاتفيّاً بوزارة الخارجيّة ليَطْلب مُوجَزًا من

١ ـ Theodor Herzl, **The Jewish State**, op. cit., p. 75.

٢ ـ Ibid., p. 93.

٣ ـ Avinoam Bar-Yosef, "The Jews who Run Clinton's Cabinet," *Ma'ariv*, 2 September 1994. Reproduced in *Journal of Palestine Studies*, no. 94, (Winter 1995), p. 148-151.

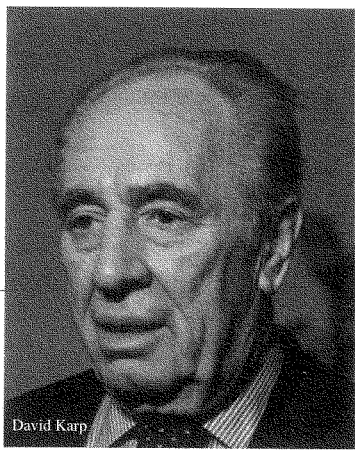

بيريز قلق من الخطر السكّاني الفلسطينيّ، ومائير لم تنم بسبب رعبها من أعداد الفلسطينيّين الذين يولدون ويَحْملون كل ليلة

الشخص المعنيّ عن أزمة هايتي في ذلك الوقت أحالوه «على يَهُودا ميرسكي. فعرَّفتُ عن نفسي أمام سكرتيره. فجأةً التقَطَ أحدُهم سمّاعةَ الهاتف، ثم سمعتُ صوتًا يقول بلهجةٍ عبريّةٍ إسرائيليّةٍ مُتْقنة: 'صباح الخير. كيف أستطيع أن أساعدك؟' لوهلةٍ ظننتُ أنّني اتّصلتُ خطأً بوزارة الخارجيّة الإسرائيليّة!»

كما نَذْكر الردودَ المتبادلةَ التي جرت في نهاية أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠١ أثناء نقاشٍ لاذعٍ اندلع في أحد الاجتماعات الأسبوعيّة للحكومة الإسرائيليّة بين رئيس الوزراء آرييل شارون ووزير خارجيّته شيمون بيريز. فقد كان بيريز يحذِّر شارون من أنَّ رفضَه الالتفاتَ الى المطالب الأميركيّة بوقف إطلاق النار قد يعرِّض المصالحَ الإسرائيليّةَ للخطر فـ «يَقْلبُ الولاياتِ المتحدةَ ضدَّنا.» هنا صَرَخَ شارون على بيريز بعد أن نَفَد صبْرُه: «كلَّ مرّة نفعلُ شيئًا تقول لي إنَّ الأميركيّين سيَفْعلون كذا وكذا. أريد أن أخبرك شيئًا بوضوح شديد: لا تقلقْ بشأن الضغط الأميركيّ على إسرائيل. فنحن، الشعبَ اليهوديَّ، نسيطر على أميركا، والأميركيُّون يعرفون هذا.»[١]

هذا التلاقي الإيديولوجيّ الكبير بين المعادين للساميّة واليهودِ التفوُّقيِّين في إسرائيل لا يَدْعو إلى العجب كثيرًا إذا فهمنا أنَّ المشروعَ الصهيونيَّ لا يَقْصر عن أن يكون تحويلاً لليهوديّ إلى لاساميٍّ.[٢] من اليقين أنّه لم يكن لزعيمٍ أميركيّ يهوديّ أو لجريدة أميركيّة محترمة، يهوديّةٍ أو غير يهوديّةٍ، أن ينشرا مقالةً معاديةً للساميّة من عيار مقالة **معاريف** المذكورة أعلاه. غير أنَّ هذا لا يعني أنَّ قادة اللوبي المؤيّد لإسرائيل في الولايات المتحدة لا ينفكّون عن التباهي بتأثيرهم الحاسم على السياسة الأميركيّة في الكونغرس والبيت الأبيض. وهذا ما فعلوه بشكلٍ منتظمٍ منذ نهاية السبعينيّات.[٣] ولكنّ ما تُغْفله هذه المفهوماتُ المعاديةُ للساميّة هو أنَّ «اللُّوبي اليهوديّ» ليس جبّارًا في الولايات المتحدة إلاّ لأنَّ دعاواه الأساسيَّة تدور حول دَفْع مصالح الولايات المتحدة قُدُمًا، ولأنَّ دعم تلك الدعاوى لإسرائيل تأتي في سياق دعمها للإستراتيجيّة الأميركيّة الشاملة في الشرق الأوسط. وبهذا يؤدّي «اللُّوبي اليهوديّ» الدورَ الذي سبَقَ للُّوبي الصينيّ أن أدّاه في الخمسينيّات من القرن العشرين، ومازال اللُّوبي الكوبيُّ يؤدّيه حتى اليوم. وحقيقةُ أنَّ اللُّوبي اليهوديّ أعتى من أيّ لوبي آخَرَ في واشنطن إنَّما تَشْهد على أهميّة إسرائيل في الإستراتيجيّة الأميركيّة، لا على وجود «قوّة» يهوديّةٍ مزعومةٍ مستقلّةٍ وغريبةٍ عن «المصالح القوميّة» الأميركيّة.

حين يَقْبل التفوُّقيُّون الإسرائيليُّون توصيفاتِ اليهود المعاديةَ للساميّةِ والمنافيةَ

---

١ ـ Radio Israel "Kol Yisrael," 3 October 2001; the Independent Palestinian Information Network, 4 October 2001.

٢ ـ عن تواطؤ الصهيونيّة مع اللاساميّة، واستخدامها اللاساميّين نموذجًا، انظرْ: Michael Selzer, **The Aryanization of the Jewish State** (New York: Black Star, 1967). Also see Joseph Massad, "The 'Post-Colonial' Colony, Time, Space and Bodies in Palestine/Israel," in **The Pre-Occupation of Post-Colonial Studies**, edited by Fawzia Afzal-Khan and Kalpana Seshadri-Crooks (North Carolina: Duke University Press, 2000).

٣ ـ عن اللُّوبي المؤيّد لإسرائيل في الولايات المتحدة، انظرْ: Paul Findley, **They Dare to Speak Out: People and Institutions Confront Israel's Lobby** (New York: Lawrence Hill and Company, 1985), and Edward Tivnan, **The Lobby: Jewish Political Power and American Foreign Policy** (New York: Touchstone Books, 1988).

للعقل والقائلةَ بأنَّ اليهود «يَتَحكّمون بالعالم،» فإنَّهم يُخْفقون في أن يرَوْا أنَّ المدى البعيد الذي بلغه الأميركيُّون اليهودُ في أن يتمثَّلوا في الحكومة الأميركيّة إنَّما هو المدى الذي تمّ استيعابُهم فيه ليكونوا جزءًا من طبقة أميركيّة بيضاء، ويُخْفقون أيضًا في أن يروا إلى أيّ حدّ تمّ دَمْجُ يهوديّتهم ـ سواء أكانت «دافئةً» أم باردة ـ في الهويّة الأميركيّة.[1] فالحقّ أنَّ اليهود الأميركيِّين الذين يَعْملون في الحكومة الأميركيّة ليسوا أكثرَ تأييدًا لإسرائيل من نُظرائهم المسيحيِّين: ولئنْ حَدَثَ أنَّهم أكثرُ منهم تأييدًا لإسرائيل فذلك يعود بالأحرى إلى إيمانهم بأنَّ دَعْم إسرائيل يَنْدرج في خدمة مصالح **أميركا** العليا. والخطر الحقيقيّ الناجم عن هذه الآراء التفوُّقيّة العرقيّة المعادية للساميّة يَكْمن في الأثر الذي قد تسبِّبه لحيواتِ وأرزاقِ اليهود الأميركيِّين (مؤْمنين بتلك النزعة كانوا أو غيرَ مؤْمنين) إنْ تبنّاها الأميركيُّون المعادون للساميّة وأصدقاؤهم. فبحسب نظرة أصحاب هذه النزعة الى العالم، وبالتساوق مع الخطاب المعادي للساميّة، لن يكون اليهودُ متفوِّقين على السكّان الفلسطينيِّين الأصليِّين الذين احتلّوا أراضيَهم ويجب أن يواصلوا احتلالَهم إيّاها، فحسب، وإنَّما سيُقال إنَّ اليهودَ سيكونون متفوِّقين على مستوى الكرة الأرضيّة جمعاء. وهكذا يكون التواطؤ بين الصهيونيّة واللاساميّة قد بلغ أقصى مداه.

أما بصدد المشروع الصهيونيّ القاضي بتحويل اليهود إلى لاساميِّين فقد كان ذلك واضحًا منذ وقت مبكّر حين قَبِلَ مفكرون يهودٌ من الهاسكالاه (فكر النهضة اليهوديّة الأوروبيّة في القرن التاسع عشر) أو المسكيلم، أمثالُ غوردون وسمولَنْسكِنْ، ممّن كانوا ذوي تأثيرٍ كبيرٍ في المفكّرين الصهاينة، توصيفاتٍ لليهود معاديةً للساميّة، كالقول إنَّ اليهود «وَسِخون» و«قَرْوَسْطِيُّون» و«خُرافيُّون» و«متخنِّثون.» وقد وَصَفَ هرتزل نفسُه اليهودَ الفرنسيِّين في يوميّاته على الشكل التالي: «ألقيتُ نظرةً على يهود باريس فرأيتُ شَبَهًا في وجوههم كأنّهم ينتمون إلى عائلة واحدة: أنُوفٌ مشوَّهةٌ وبارزة: وعيونٌ مُخْتَلِسةٌ وماكرة.»[2] فمن أجل تحويل اليهود من «رجال مخنَّثين،» كما عدَّتْهم الصهيونيَّةُ والنزعةُ المعاديةُ للساميّة، إلى رجالٍ ذكوريِّين مصمَّمين تبعًا للنموذج المعادي للساميّة، بنى ماكس نورداو المنظِّرُ الصهيونيُّ عند منعطف القرن العشرين نواديَ جمنازيّةً للرجال اليهود.[3] وقد تمّت هندسةُ «نوادي باركوخبا» النورداويّة

---

١ ـ في هذا الصدد، انظرْ: Karen Brodkin, **How Jews Became White Folks & What That Says About Race in America** (New Brunswick: Rutgers University Press, 1998).

٢ ـ **The Complete Diaries of Theodor Herzl,** op. cit., Vol. I, p. 11.

٣ ـ See Max Nordau, "Jewry of Muscle," translation of "Muskeljudentum," in *Juedische Turnzeitung* (June 1903), in Paul Mendes-Flohr and Jehuda Reinharz, eds., **The Jew in the Modern World, A Documentary History** (Oxford: Oxford University Press, 1980), p. 434-435.

ولنظرةٍ عامّة على فكر نورداو السياسيّ، انظرْ: George Mosse, **Confronting the Nation, Jewish and Western Nationalism** (Hanover: Brandeis University Press, published by the University Press of New England, 1993), p. 161-175. Also see Paul Breines, **Tough Jews, Political Fantasies and the Moral Dilemma of American Jewry** (New York: Basic Books, 1991).

من أجل «إعادة» الذكور اليهود جسديّاً إلى ما كان عليه ـ زَعْمًا ـ أسلافُهم العبرانيُّون الذين كانوا محاربين رياضيِّين كالإغريق. وقد نجح هذا المشروع إلى حدٍّ أنَّ الجنود الإسرائيليِّين المنخرطين في إخماد الانتفاضة الفلسطينيّة الثانية عَثَروا على ما يُلْهِمهم في سابقةٍ لاساميّة، هي الهجوم النازيّ على غيتو وارسو أثناء الحرب العالميّة الثانية. فبحسب الجريدة الإسرائيليّة **هآرتس**:

«من أجل الإعداد المناسِب للحملة القادمة، قال أحدُ الضبّاط الإسرائيليِّين العاملين في المناطق [المحتلّة] منذ زمنٍ ليس بالبعيد: 'إنَّه من المبرِّر، بل من الضروريّ في واقع الأمر، أن نتعلّم من كلّ مصدرٍ يُمْكننا التعلُّمُ منه. فإذا كانت المهمّة هي السيطرةَ على مخيّمٍ للاجئين عالي الكثافة، أو السيطرةَ على الحيِّ القديم في نابلس، وإذا كان مِنْ واجبِ قائدِ المهمّة أن يحاولَ أن ينفِّذَها من دون ضحايا على الجانبيْن، فإنَّ عليه أولاً أن يحلِّل وأن يَسْتبطنَ دروسَ الحروب السابقة ـ بما في ذلك، وإنْ بدا ما سأقوله صادمًا للأُذُن، كيف حارب الجيشُ الألمانيُّ في غيتو وارسو'. لقد أَفلَحَ هذا الضابطُ في صَدْم الآخرين حقّاً، وذلك يعود جزئيّاً إلى أنَّه لم يكن وَحْده مَنْ اتَّبَع هذا الأسلوبَ: فكثيرٌ من رفاقه يشاطرونه الرأيَ في أنَّه من أجل إنقاذ الإسرائيليِّين اليومَ سيكون من الصواب استخدامُ المعرفة التي انبثقتْ من هذه الحرب الرهيبة التي كان ضحاياها من أقربائهم.»[1]

ولا شكّ أنّ كتابة الأرقام على أذرع آلاف الفلسطينيِّين الذين زجَّت بهم إسرائيلُ في معتقلاتها في الشهر الماضي تعزِّز الانطباعَ بأنّ النظام النازيّ هو مثالٌ يُحتذى بالنسبة إلى الجيش الإسرائيليّ.

أمّا بشأن نزعة التفوُّق العرقيّ اليهوديّ على الفلسطينيِّين فقد باتت هذه جزءًا لا يتجزّأ من خطابٍ عالميٍّ عن التمييز العرقيّ اليهوديّ، اخترقَ الحقلَ الأكاديميَّ نفسَه. ويندرج في هذا السياق «سَحْبُ» ورقةِ بحثٍ أساسيّةٍ جديدةٍ من مجلّةٍ علميّةٍ بارزة هي مجلة **هيومان ايميونولوجي** [المناعيّات البشريّة]، وتبيِّن الورقةُ أنَّ اليهود والفلسطينيِّين متطابقون تقريبًا من الناحية الجينيّة (الوراثيّة). وتتضمّن هذه الورقة، وعنوانُها «أصلُ الفلسطينيِّين وعلاقتُهم الجينيّةُ بشعوبٍ متوسطيّةٍ أخرى،» دراسةَ الاختلافات الوراثيّة في جينات الأجهزة المنيعة بين شعوبِ الشرق الأوسط. وبحسب صحيفة **لندن أوبزيرفر** «فإنَّ الفريق، على غرار أبحاثٍ مبكّرةٍ، لم يجدْ أيَّ معطيات تَدْعم فكرة تميُّزِ الشعب اليهوديّ جينيّاً عن الشعوب الأخرى في المنطقة. وبهذا يتحدّى الفريقُ المزاعمَ التي تقول بأنَّ اليهود شعبٌ مميَّزٌ ومختارٌ، وبأنَّ اليهوديّة لا يمكن إلاَّ أن تورَّثَ.» ولكنْ نظرًا لاعتراضات ضخمة، ولتهديداتِ عددٍ كبيرٍ من أعضاء هيئة تحرير المجلة بالاستقالة، ردّت رئيسةُ تحرير المجلّة بسرعة قائلةً: «لقد تمّ حثُّ الأكاديميِّين الذين تلقَّوْا نُسخًا من **هيومان إيميونولوجي** على تمزيق الصفحات المُهينة ورمْيِها.» هنا «ذُهِل» المؤلِّفُ الرئيسيُّ للمقالة، وهو عالمُ الوراثة الإسبانيّ البروفسور أنطونيو أرنيز ـ ڤيينا. وتضيف **لندن أوبزيرڤر**:

«تدّعي رئيسةُ تحرير المجلة نيكول سوسيو ـ فوكا من جامعة كولومبيا في نيويورك أنَّ المقالة أثارتْ عاصفةً من الاحتجاجات على خطّها السياسيّ المتطرّف إلى حدٍّ أنَّها أُجبِرتْ على إنكارها. فأزيلت المقالةُ من موقع **هيومان إيميونولوجي** على شبكة الإنترنت، وبُعثتْ رسائلُ إلى المكتبات والجامعات في العالم أجمعَ تَطْلب منها

١ ـ Amir Oren, "At the Gates of Yassergrad," *Ha'Aretz*, 25 January 2002.

أن تتجاهلَ أو 'الأفضل أن تَنْتزعَ انتزاعًا ' الصفحاتِ المتعلّقةَ بهذا الأمر. وقد صُرِفَ آرنيز ـ ڤيينا من هيئة تحرير المجلة...»[١]

حلول عمليّة؟

تُصوِّر الصحافة الدوليّةُ والخطابُ الرسميُّ الإسرائيليُّ رَفْضَ إسرائيل المتواصلَ لتبديل طبيعتها اليهوديّة العِرْقيّة التفوُّقيّة، أو لتبديلِ سياساتها العنصريّة تجاه الشعب الفلسطينيّ، على أنَّه دفاعٌ عن مبادئ إسرائيل «الديموقراطيّة» وعن شعبٍ يهوديٍّ تَوَقَّفَ اضطهادُهُ التاريخيُّ لمجرّد دخولِ الصهيونيّة على الخطّ. ولكنّ السبيل الوحيد لكي تكتسب هذه الأقوالُ أيَّ قوّة إنَّما هو في سياق الالتزام الدوليّ (اِقرأْ: الغربيّ) بالتفوُّقيّة اليهوديّة. فالحجرُ الأساسُ في الفكر التفوُّقيّ العرقيّ اليهوديّ هو الالتزامُ بإنشاء دولةٍ يهوديّةٍ يكون لليهود فيها (أكانوا «شعبًا مختارًا،» أم أوروبيِّين يَحْملون رسالةً تمدينيّة،[٢] أم مجموعةً مضطَهَدةً تاريخيّاً يَنْبغي تحريرُها أيّاً يكن الثمن)[٣] حقوقٌ تَفُوق حقوقَ الأغيار. إنّ التفوُّقيّة اليهوديّة هي ما يَجْعل قضيّةَ إسرائيل، بوصف هذه الدولة يهوديّةً بدلاً من أن تكون إسرائيليّة، أمرًا بالغَ التقديس لا يُمْكن تبديلُه لأنّ ذلك سيكون شأنًا غيرَ عمليّ. وإنّ التزام هذه النزعة هو ما يَجْعل من عودة اللاجئين الفلسطينيِّين «خطرًا ديموغرافيّاً» يهدِّد الغالبيةَ اليهوديّةَ في إسرائيل (وهي غالبيّةٌ باتت كذلك تحديدًا لأنّ الفلسطينيِّين الذين يَسْعَوْن اليومَ إلى العودة إلى أراضيهم وبيوتهم قد سَبَقَ أن طُردوا منها أصلاً). وإنّ ذلك الالتزام هو الذي يواصِل شرعنةَ معاملةِ الفلسطينيِّين داخل حدود ١٩٤٨ مواطنين من الدرجة الثالثة. وهو الذي يشرِّع استمرارَ الاحتلال صِمَامَ أمانٍ أمام التهديدات الموجَّهة إلى إسرائيل كدولة عرقيّةٍ تمييزيّةٍ يهوديّةٍ.

فإذا أَزَلْنا ذلك الالتزامَ غدا أسهلَ بكثيرٍ إيجادُ حلٍّ للصراع الذي فَرضَتْه الصهيونيّةُ على الفلسطينيِّين. فلنتخيّلْ عالمًا لا يعود فيه غالبيّةُ اليهود الإسرائيليِّين ويهودِ الشتات ومَنْ يدعمهم مِنَ الأغيار ملتزمين نزعةَ التفوُّق العرقيّ اليهوديّ. في هذه الحال ستصبح إسرائيلُ دولةً ثنائيّة القوميّة تعامِلُ مواطنيها على قَدَمِ المساواة، فتَسْمحُ للّاجئين الفلسطينيِّين بالعودة إليها لأنَّهم لن يُشكّلوا خطرًا ديموغرافيّاً على نزعة الهيمنة اليهوديّة العِرْقيّة. ولن يكون على إسرائيل أن تحتلّ الضفّةَ الغربيّةَ وقطاعَ غزّة، لأنَّها لن تعود إذّاك ملتزمةً سياسةَ الاستعمار اليهوديّ للأرض الفلسطينيّة أو سياسةَ سرقةِ المياه الفلسطينيّة لأنّ إسرائيل لن تخشى بعد ذلك على أمنها. وإذّاك يستطيع الفلسطينيُّون أن تكون لهم دولةٌ فلسطينيّةٌ في الضفّة الغربيّة وغزّة، أو قد يختارون ـ جنبًا الى جنب مع الإسرائيليِّين ـ دولةً ثنائيّةَ القوميّة على كامل حدود فلسطين التاريخيّة.

كيف يتأتّى ذلك؟

---

١ ـ Robin Mckie, science editor, *The Observer*, "Journal Axes Gene Research on Jews and Palestinians," 25 November 2001.

٢ ـ تحدث هرتزل عن مستقبل الدولة اليهوديّة كـ «جزء من متراسٍ لأوروبا ضدّ آسيا، وكقاعدة أماميّة للحضارة في مواجهة البربريّة.» أنظرْ: **The Jewish State**, op.cit., p. 96.

٣ ـ عن استخدام الصهيونيّة للاضطهاد اليهوديّ، بما في ذلك الهولوكوست، تبريرًا لجرائمها، انظرْ: Joseph Massad, "Palestinians and Jewish History: Recognition or Submission," *Journal of Palestine Studies*, No. 117, Fall 2000.

وقد أعيد نشر هذا المقال في ملحق جريدة **النهار** على حلقتين: «الفلسطينيُّون والمحرقة اليهوديّة: الإيديولوجيا الصهيونيّة غلبت الحقيقة،» ٨ أيلول ٢٠٠١، و«النكبة الفلسطينيّة والمحرقة اليهوديّة: الربط المستحيل،» ٦ تشرين الأول ٢٠٠١.

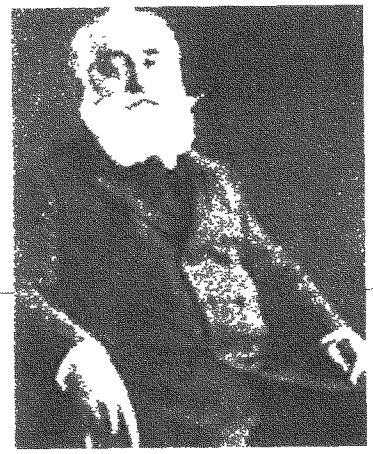

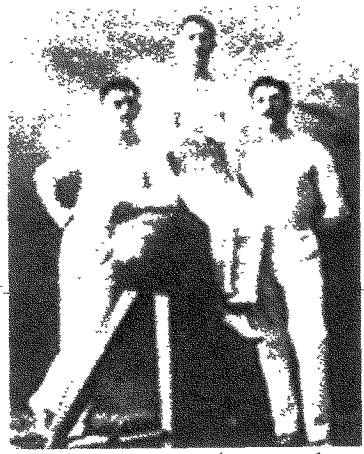

من أجل تحويل اليهود من «مخنّثين،» كما عدّتهم الصهيونيّة واللاساميّة، إلى رجال ذكوريين، بنى ماكس نورداو نوادي جمنازيّة

لقد انتهت الهيمنةُ البيضاءُ المُمَأْسسة في الولايات المتحدة وفي جنوبيّ افريقيا حين باتت كلفةُ المحافظة عليها أبهظَ من أن يتحمّلها العنصريُّون البيضُ في كلا البلديْن واليوم لن يجد المرءُ إلاّ أقليّةً ضئيلةً من الناس يَجْهرون بارتياح بأنّهم دَعَموا يومًا نزعة التفوُّق العرقيّ الأبيض، مع أنّهم سبقَ أن جَهَرُوا بذلك وبارتياح كبير قبل بضع سنوات. والحال أنّ التفوُّقيّين الإسرائيليّين، حُكّامًا ومواطنين، لم يَدْفعوا كثيرًا ثمنَ احتفاظهم بهذه النزعة. وهم اليوم لا يكتفون بالاحتفاظ بالأرض التي احتلّوها بل يواصلون توسيعَها، ولا يَكْتفون بانتزاع ما يقيم أَودَهم بل ازدهروا على كافة الصُّعُد الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة

لقد كان على الفلسطينيّين أن يَدْفعوا بأنفسهم، وإلى يومنا هذا، ثمنَ الحفاظ على التفوُّقيّة العِرقيّة اليهوديّة. ولن يتخلّى اليهودُ الإسرائيليُّون عن هذه التفوُّقيّة إلاّ بعد جَعْلِ كلفتها باهظةً جداً. وهذا يكون بمواصلة مقاومة الفلسطينيّين داخل إسرائيل وفي المناطق المحتلّة عامَ ١٩٦٧ لكافّة المؤسّسات المدنيّة والعسكريّة الداعمةِ لنزعة الهيمنة العرقيّة اليهوديّة، وبممارسة مختلف أشكال الضغوط الدوليّة بما في ذلك. سَحْبُ الاستثمارات الدوليّة من إسرائيل، وفرضُ حصار اقتصاديّ عالميّ على هذا البلد، ومقاطعتُه ثقافيّاً وسياحيّاً، وعزلُه ديبلوماسيّاً على مستوى العالم. عندها، وعندها فقط، سيَقْتنع غالبيّةُ الإسرائيليّين اليهود بأنّ كلفة هذه النزعة أبهظُ من أن يتحمّلوها، وسيصبحون أكثرَ استعدادًا للتبرُّؤ علنًا منها، وأكثرَ راحةً في الزعم ـ شأنَ نظرائهم البيضِ في جنوبيّ أفريقيا والولايات المتحدة ـ أنّهم لم يَدْعموها يومًا أصلاً.

من المؤسف حقّاً أن تكون إسرائيل قد حظيتْ منذ نهاية السبعينيّات بالاعتراف بحقّها المزعوم في أن تكون دولةً يهوديّةً عنصريّةً من قِبَل مصر، ومنذ أوائل التسعينيّات من قِبَل الأردن ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة ذاتها. وفي شباط/فبراير الماضي، حظيتْ إسرائيل باستعدادِ العالم العربيّ أجمع، المُجتمِع في قمته المنعقدة في بيروت، بالاعتراف بحقّها المزعوم في أن تكون دولة عنصريّة شريطةَ أن تنسحب من الأراضي الفلسطينيّة التي احتلّتها عام ١٩٦٧.

في هذا السياق السياسيّ الدوليّ الراهن، قد يبدو الحلّ المطروح في هذه الورقة «غيرَ عمليّ.» غير أنّه ليس أقلّ عمليّةً من «العمليّة السلميّة» المتداعية التي يتواصل تسويقُها للعالم وللشعب الفلسطينيّ بوصفها أمرًا عمليّاً. إنّ كل الحلول التي تتجاهل الإبقاءَ على نزعة الهيمنة العِرقيّة اليهوديّة في إسرائيل ستَفْشل لا محالة. وما لم يصبحْ إلغاءُ هذه النزعة هو الهدفَ الرئيسيّ لـ «عمليّة سلام» حقيقيّةٍ، فإنّ كلّ الحلول الأخرى لن تؤدّي إلاّ إلى تأبيد الصراع.

نيويورك